العرب
السبت 2020/03/07
السنة 42 العدد 11639

سِيَر الشعراء تُفجّر أسئلة الكتابة

السيرة عند الشاعر نوع من الانتصار العابر

الشعراء هم أصحاب أغرب السير (لوحة للفنانة هيلدا حياري)

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

عندما وضع فيليب لوجون تعريفا للسيرة الذاتية، جعلها حكرا على النثر، وأبعد الشعر عن الميثاق السيري، وهو ما أثار تساؤلات كثيرة؛ مثلا تساءل دومينيك راباتي عن حصة السيرة الذاتية داخل الشعر المعاصر؟ أو هل للنظام السير ذاتي معنى في الشعر؟ فرد لوجون في نوع من الحسم "إن النثر لم يعد قيدا في تحديد نوع السيرة الذاتية، (بل) إن الشعر أخذ يضرب الباب على السيرة الذاتية"، في إشارة إلى تحقق السيري داخل النصوص الشعرية.

في كتابه الجديد بعنوان "سير الشعراء: من بحث المعنى إلى ابتكار الهوية" يدرج الشاعر والكاتب المغربي عبداللطيف الوراري قراءات لسير شعراء مختلفين من العالم العربي، وصلت إلى خمس عشرة سيرة ذاتية.

وينطلق الناقد في كتابه، الصادر أخيرا عن دار فضاءات للنشر والتوزيع 2020، من أن السيرة الشعرية كتابة مضاعفة تؤرخ لسيرة أنا الشاعر بقدر ما تشف -بلا قيد مرجعي ضاغط- عن تطور تجربته في الكتابة، هنا والآن، وباحثا عن روح جديدة في كتابتها، وعن كيفيات مخصوصة في بنائها وتخييلها، وأيضا لما أثارته مثل هذه السير من قضايا كمسألة الشعر المقيم في قلب الظاهرة السردية، والعكس صحيح.

أقنعة السيرة

الحقيقة أن القيد الذي وضعه فيليب لوجون في تعريف السيرة الذاتية، خشية أن تتسرب إلى الشعر أصداء السيرة الذاتية، لا وجود له، فالذاتي يطرد حضوره في أشعار الشعراء، فكتبوا حياتهم به، ووضعوا قصصا في قالب شعري، وكما يقول الوراري إن "السير الذاتي في شعرنا المعاصر لم يعد يشكل بعدا أو مكونا نصيا فحسب، بل خصوصية بنائية أو بؤرة رئيسة في البنية العامة للنص الشعري".

الأمثلة كثيرة، وممتدة من تاريخ الشعر العربي إلى عصرنا الراهن. وهو ما يفيد تعبيرهم بالشعر عن حياتهم، إلا أن الكثير من الشعراء، انساقوا إلى إغراء الذات وكتبوا سيرا خالصة، وفقا لتلك التي حدد ميثاقها لوجون، على نحو ما فعل نزار قباني، فمرر تجربته الذاتية في أشعاره، ولم يكتف بسيرة ذاتية نثرية واحدة، بل كتب سيرتين الأولى بعنوان "قصتي مع الشعر" عام 1970، والثانية بعنوان "من أوراقي المجهولة... سيرة ذاتية ثانية" عام 2000. وبالمثل كتب صلاح عبدالصبور "حكايتي في الشعر" 1969، وأدونيس "هذا هو اسمي" 1969.

وإن كان ثمة نوع من الشعراء مرروا سيرهم داخل قصائدهم، كما فعل وديع سعادة في "تركيب آخر لحياة وديع سعادة" وصلاح فائق في "مقاطع يومية"، وعبر هذين الديوانين قام الوراري باستخلاص السير ذاتي من قصائدهم. فيرى أن وديع سعادة أعاد بناء حياته من جديد، وحياته الداخلية تحديدا، وركب عناصرها تركيبا كيمائيا؛ فحول الإثنوغرافي إلى عمل تراجيدي، يمليه المحتمل السير ذاتي من شطب ومحو. كما أعاد تشغيل مهملات الحياة وبقاياها الطافية، فجاءته سيرته وكأنها متشظية.

أما صلاح فائق فكانت تجربته مثل شعره، سلسلة غرائب وطرائف لا تجمعها حبكة ما إلا بداعي الاعتبار. كما يحضر داخل الديوان "الميتا شعر" أي الشعر على الشعر، أو كما يعرفه "نوع من السيرة الشعرية تكشف حالات القصيدة ومختبر ذاتها الكاتبة" مثلما تكشف توتر هويات الكتابة، ووظيفتها ومصادرها والتباس مفاهيمها وحدودها الأنواعية، حيث التنظير لمآلات العملية الشعرية وهواجسها والجدوى منها، وهو ما يشير إلى وعي الشاعر الحاد بأدوات عمله التعبيري ومشاريعه الممكنة.

قد يكون العامل الأساسي من وراء كتابة الشعراء لسيرهم نثرا، ليس فقط سرد حياتهم الشخصية، وإنما التعرض لتجاربهم الشعرية وشهاداتهم عن التحولات التي مروا بها، وهم يروضون القصيدة، وقد تأتي كتقييم لمنجزهم الكتابي، ومواقفهم من قضايا الشعر ذاته، وما أثير حول التجديد فيه، وهناك من جعل منها وثيقة للدفاع عن هذا الشعر، على نحو ما فعل صلاح عبدالصبور في "حياتي في الشعر". كما أن الشعراء لم يكتفوا بتمرير سيرهم وتجاربهم فقط عبر سير خالصة، بل جاءت موزعة في حوارات صحافية وتلفزيونية، ورسائل متبادلة وغيرها، من أشكال وصيغ، تقترب أو تبتعد عن السيرة الذاتية الخالصة.

شعرنة السيرة

يتوزع الكتاب على ستة فصول، وتقديم جاء كتنظير وطرح للأفكار الأولية، حيث تحدث عن تململ نظرية الأنواع. فديناميةالأنواع أدت إلى ولادة أنواع جديدة، إضافة إلى تأثيرات موجة الحداثة التي عرفتها الآداب الأوروبية، وصعود مفاهيم جديدة مثل النص والكتابة، بما أحدثته من خروقات كبيرة جدا حالت دون الاحتفاظ بنقاء النوع الأدبي واستقلاليته.

الغريب أن النص كان يعمل ضد النظرية التي سعت إلى تأطيره في تقاليد صارمة بإقامة الحدود والخطوط للحفاظ على النقاء الأنواعي، والاختراقات التي تعرضت لها، وصولا إلى تداخل الشعري والنثري، وهو ما دفع البعض إلى القول باستحالة الحديث عن الرواية باعتبارها نثرا فحسب، بعد أن اختلط الشعر بالنثر، والتاريخ بالكتابة، خاصة في ظل وجود نماذج استطاعت أن تحقق أكثر من غيرها التخلل الأنواعي كما يقول الوراري.

يؤكد المؤلف أنه ليس بصدد تحليل كل سيرة ذاتية (معلنة وغير معلنة) تحليلا مفصلا، بقدر ما أنه يركز على خاصية التداخل أو التماس الجوهري بين السردي والشعري في بعض آلياته وأطره الخاصة. وهو ما يعني أنه يهتم بتحقق الشعري على حساب السيري. حيث يولي الاهتمام إلى عمل اللغة، وجماليات المحكي الطفولي، وشعرية المفارقة، والغيرية بوصفها أساس ابتكار الهوية، ثم شعرنة السيرة.

لا يكتفي المؤلف بالتعريف الذي قدمه محمد صابر عبيد عن السيرة الشعرية في كتابه "السيرة الذاتية الشعرية: قراءة في التجربة السيرية لشعراء الحداثة العربية"، حيث وصفها بأنها "سرد نثري يتولى فيه الشاعر تدوين سيرته الذاتية فقط -تاريخيا ومكانا وحادثة- لا يخرج فيها إلى تناول جوانب أخرى غير شعرية من سيرته، ولا على النحو الذي له صلة ما بدعم قضيته الشعرية في السيرة".

وإنما يمرر مفهوما آخر صاغه وفق تأملاته، وإصغائه للمتون التي استعرضها، يتمثل في اعتبار "السيرة الشعرية تنفتح على الشعر الذي يمنحها حساسية جديدة، ومضاعفة في رؤيتها الذاتية للأشياء والعالم" ثم يدخل بنا مباشرة إلى قراءة النصوص التي انتخبها، وعبرت عن سير الشعراء. فيختار سير ثلاثة من الشعراء هم: غازي القصيبي، ومحمد بنطلحة، ومحمد حلمي الريشة، كتمثيلات للتأكيد على أن شعراء أطراف المركز الشعري لم يتأخروا بدورهم عن اللحاق بركب الحداثة، رغم العوامل السوسيوثقافية الصعبة التي كانوا يواجهونها، وأيضا رغم النظام التقليدي والمحافظ الذي ألقى بظلاله الكثيفة على مساحات الفكر والحرية والإبداع. لكن انفتحوا على تجارب غيرهم وتأثروا بما كان يروج من مفاهيم الشعرية الجديدة، بل ساهم بعضهم في بلورتها والنقاش فيها.

يعي الشعراء مفهوم السيرة الشعرية المفارق للسيرة الذاتية، فيبدأ غازي القصيبي سيرته "سيرة شعرية" بالاعتراف بأن "فصل السيرة الشعرية عن السيرة الذاتية أمر بالغ الصعوبة" لما يمثله الشعر من أحد وجوه شخصيته الإنسانية. ففي تدوينه لسيرته الشعرية، يسعى إلى تأمل تجربته بأطوارها المختلفة، وتيسير قراءتها وتلقي مراحل تطورها بمنأى عن كل شعور بالغرور والاعتداد بالنفس.

تحفل سير الشعراء بالمؤثرات، التي لعبت دورا في تجاربهم الشعرية، سواء أكانوا شعراء أم كتّابا أم كتّاب رحلات والأخيرة بما تضفيه من اتساع للرؤية وانفتاح على ثقافات جديدة مختلفة عن ثقافة المنشأ وغيرها، بل تتخذ أحيانا من الظروف التي كانت أشبه بالعقبة الكؤود مؤثرا في تشكيل هذا الوعي، للبحث عن منافذ تتجاوز الإطار الضيق أو السجن، الذي وضعت فيه الذات، لتحلق بعيدا عن هذه الدائرة المغلقة على نحو ما نرى في سيرتي فدوى طوقان "رحلة جبلية رحلة صعبة"، ووديع سعادة الذي عرك حياة قاسية ومعذبة لعقدين من الزمان.

> العامل الأساسي وراء كتابة الشعراء لسيرهم نثرا، ليس فقط سرد حياتهم الشخصية، وإنما التعرض لتجاربهم الشعرية

وفي بعضها تأتي السيرة كنوع من الانتصارات العابرة والمؤقتة. ومن ثم تنبع أهمية هذه السير التي تقترب من السير الفكرية للكتاب، بتوقفها عند محطات التكوين، وأيضا بتتبع التحولات الفكرية والأيديولوجية وتأثيراتها على الكتابة نفسها.

كما تحفل بعض السير بتأملات في الكينونة الشعرية، وعلاقتها بالوجود، ودورها كمقاوم، وتخطي الحواجز النفسية في مجتمع ذكوري على نحو ما اعتبرته فدوى طوقان في سيرتها، كما تتناول ماهية الكتابة وأسرارها وتحولها، فتطرح أسئلة إستراتيجية تنصت إلى عمل الكتابة، عن حدود امتدادات الواقع في النص الشعري؟ آفاق المتخيل وإمكاناته؟ ما هي طبيعة الديناميزمات التي تحكم علاقة الشاعر بالذات والتاريخ والذاكرة واللغة؟ دون أن يقلل هذا من جنوح بعض السير إلى البحث عن الهوية التي صارت متغيرة، أو موضوعا مفقودا ينبغي العثور عليه ثانيا.

ومن ثم تسعى كتابة السيرة الذاتية إلى "بناء هوية نصية موازية (معادل لغوي وذهني) لتجربة الحياة الفردية في الوجود". وهو ما دفع البعض إلى ابتكار هوية، باعتبار أن الآخر هو الأنا لو قلبنا منطوق آرثر رامبو.

قراصنة الكِتاب يجولون بيننا

حسن الوزاني
كاتب مغربي

في اللحظة التي كنتُ أهمّ بتوديع نائبة مدير المنظمة العالمية للملكية الفكرية، بعد اجتماع طويل جمعني بها أثناء تحملي لإدارة الكتاب، فاجأنا شاب بمكتبته المتنقلة عارضا علينا جديد الأدب العالمي بعشرة دولارات، مع إمكانيات الخصم. كان المشهد طريفا وصادما في نفس الوقت، لأن الشاب اختار أن يأتي ببضاعته المقرصنَة إلى باب عقر المؤسسة التي يُفترض فيها أن تحمي الكتاب.

والحقيقة أن ذلك لا يشكل أمرا منعزلا. بل إن مشهد الشبان الذين صاروا يجتاحون كثيرا من شوارع مدن المغرب بكتبهم المقرصنة صار جزءا من طقوس هذه المدن. وإذا كان الأمر يشكل تهديدا لصناعة الكتاب، فإنه يسائل، في نفس الوقت، أصحاب "نظرية" أزمة القراءة بالبلد. ذلك لأن الإقبال على الكتب، وإن كانت مقرصنة، يعني في نهاية المطاف وجود كتلة هامة من القراء الذين لهم حاجياتهم الخاصة. وهي الحاجيات التي يتم الانتباه إليها بذكاء من طرف مافيا القرصنة، التي يبدو أنها تمتلك القدرة على تتبع الإنتاج الأدبي العالمي الجديد. وذلك بالطبع بدون أن يعفي هذه المافيا، التي تشتغل في الظل، من مسؤوليتها عن جرائمها في حق الكتاب، سواء المغربي منه أو الأجنبي.

وبالطبع، لا يخلو بلد ولا تخلو فترة زمنية من حالات مشابهة، بشكل تبدو معه القرصنة ظاهرة مشتركة، تماما كما بقية الجرائم الصغيرة والكبيرة. غير أن حدة الظاهرة تظل رهينة حضور الأخلاقيات والقيم التي يفترض أن تطبع مشهدا ثقافيا ما. أما الأمر المفارق فهو أن حدة الظاهرة تزداد مع اقتصاديات الكتاب الكبرى. ذلك على الأقل ما يؤكده آخر تقرير صادر قبل أيام. وهو يخص بلدا أوروبيا كبيرا هو إيطاليا. ويكشف التقرير، الذي أعدته جمعية الناشرين الإيطاليين، عن أرقام مذهلة تخص قرصنة الكتب على مستوى النيت؛ إذ تصل عمليات القرصنة إلى ثلاثمئة ألف عملية يوميا، مخلفة خسارات مالية تتجاوز الخمسمئة مليون أورو سنويا، وهو ما يشغل ثلث أرقام معاملات قطاع النشر بالبلد.

ولا تتوقف هنا خسائر القرصنة، التي يتورط فيها الجميع، بمن فيهم الأساتذة والموثقون والمهندسون وغيرهم. بل سيكون من مخلفاتها اجتياح البطالة لأكثر من ثمانية آلاف عامل من بين المشتغلين بقطاع الكتاب وبمختلف المهن المرتبطة به.

ولعله من باب الصدفة أن يتزامن صدور التقرير مع فضيحة أخرى عرفها نفس البلد. إذ ستفاجأ دار النشر الإيطالية الشهيرة أ/أ برواية "الحياة الكاذبة للبالغين" للكاتبة إيلاينا فيرانتي وقد صارت معروضة للبيع على موقع أمازون بنصف الثمن المقرر، قبل عرضها في السوق من طرف الدار، وذلك بعد أن وصلت إليها أيادي مافيا القرصنة. ولم يكن اختيار المافيا لهذه الرواية اعتباطيا. إذ أن الروائية إيلاينا فِيرانتي تجر وراءها كثيرا من الأعمال الناجحة، كما هو الأمر بالنسبة إلى روايتها "الصديقة الرائعة"، التي حققت مبيعات تتجاوز العشرة ملايين نسخة، قبل أن تجد طريقها نحو التلفزيون عبر المسلسل الذي يحمل نفس الاسم.

ولا تقل وضعية القرصنة ببلد كفرنسا عن الحالة السابقة. وذلك بالرغم من كل الإجراءات، التي تتخذها سواء المؤسسات الرسمية أو المهنية. ومن ذلك إطلاق قانون "الثمن الوحيد"، الذي يُعرف باسم واضعه جاك لونغ، وزير الثقافة الأسبق، والذي يهدف إلى حماية الكتاب من خلال منع تخفيض ثمنه. وذلك بالإضافة إلى تدخل النقابة الوطنية للناشرين الفرنسية، من جهة، عبر بلورة ميثاق جماعي يهدف إلى تأطير عمليات بيع الكتاب عن طريق النيت، ومن جهة ثانية عبر إطلاق منظومة معلوماتية بإمكانها تصيد الكتب المقرصنة. وبذلك، يجد البلد نفسه أمام التزايد المذهل لعمليات القرصنة التي تمس بشكل خاص الكتاب الإلكتروني. بل إن آخر التقارير التي تهم المجال تذهب إلى تأكيد أن القرصنة بفرنسا تمس حوالي نصف ما يُتاح على الويب.

وإذا كان الوضع بهذا السوء داخل بلد كبير كفرنسا، فلنا أن نتصور حجم المخاطر التي يعيشها الكتاب بالعالم العربي، حيث تشتغل مئات مواقع الكتب المقرصنة بكل حرية، في اللحظة التي تتواصل فيها دعوات الجميع لتوقيف الظاهرة. وإن كانت الدعوات لا تكفي في هذه الحالة. أما الأمر المفارق فهو أن الجميع يجهل حجم الظاهرة وخسائرها. وذلك لغياب الإحصائيات التي يُفترض أن تشكل المدخل الأساس لكل حل.

> لا يخلو بلد ولا تخلو فترة زمنية من حالات قرصنة الكتب في شكل تبدو معه هذه الظاهرة منتشرة وشعبية

وخارج هذه الحالات، لا يمنع الأثر المدمر لعملية القرصنة بروز الكثير من الأفكار المناصرة لها ولحق الجميع في الوصول إلى كل الوثائق والمعلومات بكل الطرق، المشروعة منها أو غير المشروعة. ولعل من أهم منظري هذا الاتجاه لاورينس لیانغ، الباحث في جامعة دلهي والعضو المؤسس لمنتدى القانون البديل. إذ يعتبر ليانغ القرصنة، في دراسته الشهيرة "القرصنة، والإبداع والبنيات"، الوسيلة الأفضل لإشاعة الثقافة وتيسير الوصول إليها، خصوصا في المجتمعات التي تُحجم دولها عن تقاسم المعرفة وتوزيعها العادل على الجميع. بل إن لاورينس ليانغ يذهب إلى أبعد من ذلك حين يعتبر أن القرصنة تشكل مصدرا للإبداع، مستدلا على ذلك بالتطور الذي عرفته السينما النيجرية بفضل أعمالها التي تَنسخ كثيرا منها أفلامَ بوليوود، مؤسسة بذلك لصناعة حقيقية في غياب الدعم الرسمي.

بمعزل عن ذلك، لا تقف القرصنة هنا. إذ أن أياديها الطويلة تصل إلى كل مجالات الإبداع، سواء التشكيلي منه، أو السينمائي، أو الموسيقي أو غيره. إذ لا حدود للصوص الكتب والأفكار.

الكتب المقرصنة تهدد الناشرين